الفصل الثـانى

الأديان وعصور التقوى

obeikan.com

الأديان وعصور التقوى

حين تتحرّك عوامل الخطر، لدى الجماعة القومية، كالهزائم العسكرية والحضارية والفقر والمجاعات، وشيوع الفساد.. فإن ذلك يؤدى إلى تحرّك «شِفرة الصراع فى سبيل البقاء»، فتتّجه الجماعة إلى الدين القومى، باعثة فيه روح «التوتم»، بل روح «الملكة فى عالم الحشرات الاجتماعية».. وفى مثل هذه الحالات من الخوف والقلق، تنحط الجماعة القومية بالدين، وتصبح شرسة عدوانية، ويكثر فيها الإرهاب والقتل لمجرد أى اختلاف فى الرُّؤَى.

يحدثنا الثقات من المؤرخين عن هذه الفترات ويسمونها «عصور التقوى الشخصية»[1] وهى عصور الاهتمام بمظاهر الدين من حيث الطقوس والملابس، وهى ـ أيضا ـ عصور عدم الاهتمام بالقيم والأخلاق وسلطة الضمير.. وعصور قوة المجتمعات نجدها حافلة بنماذج من الرُّؤَى والصور والأفكار، التى تختلف مع التراث القومى (الدينى)، ومع ذلك ـ وبدافع من الثقة بالنفس، فإن المجتمعات القويّة تتقبّل تلك الرُّؤى.. فقد تقبل المجتمع العباسى فى عنفوانه رُؤَى وأفكار أبى العلاء المعرّى ساخرا من فكرة الإمامة فى قوله:

زعم الناس أنْ يقومَ إمامٌ ... ناطقٌ فى الكتيبة الخَرْساءِ
كذب الزعمُ لا إمام سوى ... العقل مشيرا فى صُبْحِهِ والمساءِ

(١) جيمس هنرى برستد «فجر الضمير». ول ديورانت «قصة الحضارة». أرنولد توينبى فى «مختصر تاريخ العالم». جون ويلسون فى «تاريخ الحضارة المصرية».

بل إن ذلك المجتمع النابض باحياة تحمّل أبا العلاء حين خاطب الله قائلا:

أَنَهَيْتَ عن قَتْل النفوس تَعَمُّداً وبَعَثْتَ تأخذُها مع المَلَكَيْنِ
وَزَعَمْتَ أنّ لها معاداً ثانياً ما كانَ أغناها عن الحاليْنِ

كذلك تحمّله مجتمعه حين تشكك فى الأديان جميعا فقال:

عَجِبْتُ لكسرى وأشياعه وغَسْلِ الوُجوهِ ببولِ البقرْ(١)
وَقَوْلِ اليهودِ إلهٌ يُحِبُّ رَشَاشَ الدماءِ وريحَ القترْ
وقولِ النصّارى إله يُضَامُ ويُظْلَمُ حَيّاً ولا ينتصرْ
وقومٍ أتوْا من عَميق الفِجَاجِ لِرَمْيِ الجمارِ وَلَثْمِ الحجرْ
فواعجَباً من مقَالاتِهِمْ أَيَعْمَى عن الحق كلُّ البَشَرْ(٢)

وفى عصور «التقوى» حيث تنحل المجتمعات وتضعف، يسود الانتهازيون ومُدّعو التدين ولابسو مسوح الكهنة، والويل لمن يحيد قيد أنملة عن التراث:

١- خشى جرجس بطريرك الإسكندرية من تأثير الفلسفة اليونانية فى النفوس وكثرة المناقشة حول «حرّيّة الإرادة»، فقرر القضاء على الفلسفة فى جامعة الإسكندرية وفى يوم من أيام سنة ٤١٤م، وبينما كانت الأستاذة هيباثيا تحاضر فى الحكمة ونظرية المعرفة، إذ برهبان يتزعمهم

(١) يتبرك البوذيون ببول البقرة، فالبقرة مقدسة فى البوذية.

(٢) من ديوان «سقط الزّند» لأبى العلاء. ريح القتر: ريح اللحم المشوى لحم البشر حيثُ دأب اليهود على حرق أعدائهم بالنار. والإله الذى ظُلم هو المسيح، والذين أتوا للثم الحجر هم المسلمون.

هذا البطريرك، يدخلون على هيباثيا فى المدرّج، ويجرّونها من أرجلها ويقطعون جسدها ثم يشعلون النار فى أعضائها وجسدها.

٢- « مانى » مؤسس المانوية الذرادشتية، لم يرض عن الصراع الدينى فى زمنه (القرن الثالث الميلادى) فأنشأ عقيدة جمعت بين مزايا الأديان فى زمنه، ولكنّ رهبان الذرادشتية: صلبوه وسلخوه حيا ثم أحرقوه.

٣- أُضْطُهِد الصوفى الأندلسى محى الدين بن عربى، حيث لم يفهمه السطحيون حين قال:

لقد كُنْتُ قبل اليوم أُنْكِرُ صاحبى ... إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى
وقد صار قلبى قابلاً كَلَّ صورةٍ ... فمرعى لغزلانٍ ودَيْرٍ لرهبانِ
وبيتٌ لأوثانٍ وكعبةِ طائفٍ ... وألواح توراةٍ ومصحفِ قرآنِ
أدينُ بدين الحبّ أنّى تَوَجّهَتْ ... ركائبهُ فَالحبُّ دينى وإيمانى

٤- ومأساة الحلاج غنيّة عن كل بيان.. حاكمه المقتدر العباسى (وهو من ملوك عصور الضعف) من خلال قضاته ورجال دينه، وأفْتَوْا بقتله، دون استتابة.. فأمروا بضربه ألفا، فإن لم يمت فألفين، ولم يمت فقُطّعَتْ أطرافُه، ثم انتظروا حتى أفاق من آلامه، ثم أحرقوه.

☆☆☆☆☆

عصور التقوى هى عصور رفع الشعارات

«فى القديم»

عصور التقوى ـ كما أسلفنا ـ هى عصور المبالغة فى الطقوس الدينية، وقصْر الدين فى الصلوات والصيام والحج وطريقة السلام، وطريقة دخول المعابد والكنائس والمساجد والبيوت.. أما التوجهات الأخلاقية والإنسانية، فلا يهتمّ بها أحد فى «عصور التقوى».

بعد مصرع عثمان بن عفان، بدأ الأمويون طريقهم إلى الخلافة أو المَلَكيّة الإسلامية. فرفعوا «قميص عثمان» الملوّث بدمه. وبدأ عملاء بنى أمية يرددون أنّ «عليا وبنيه تقاعسوا عن نصرة عثمان» وأرجف الأمويون وعملاؤهم بذلك فى مكة والمدينة ودمشق، بل وفى كافة الأقطار الإسلامية، ولم يهتم الإمام علىّ بأقوالهم، وكان ـ رحمه الله ـ غير معتادٍ على استخدام العملاء والمهيّجين كبنى أمية..

وقامت معارك بين على ومعاوية.. ومع مُعَاوية عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وكلاهما من «ثعالب العرب».

وكما رفعوا «قميص عثمان» رفعوا فى «صفين»، وهى المعركة الفاصلة بين على ومعاوية، المصاحف على أسنّة الرماح، ورددوا كلمتهم أو شعارهم «لا حكم إلا لله». وحاول الإمام علىّ أن يوضح الأمور لجنوده وأصحابه، فقال لهم: «إن ما فعله عمرو ومعاوية ومن معهم، حين رفعوا المصاحف على أسنّة الرماح، وحين قالوا لا حكم إلا لله، ما فعلوه وما قالوه «كلماتُ حقّ

يراد بهـا باطل» . . إلا أنّ أصحـاب علىّ وجنوده توقفـوا عن النـتال، مع أنّهـم كانوا قاب قوسين أو أدنى من النصر. . وكان التحكيم، وكانت الخوارج . . . واتفق بعض «الغُلاة» على قتل على ومعـاوية وعـمـرو فى ليلة واحـدة (١٧ رمضـان) . . . مَنْ ضَرَبَ معاوية لم يُوفّق لقتله، ومن ذهب لقتل عـمرو، لم يكـن يعـرف عـمـراً، فـقـتل خـارجـة نائب عـمـرو الذى صلى بالناس فى تلك الليلة، وضُـرب بذلك المثلُ: «أراد عـمْـراً وأراد الله خـارجـة» واسـتطاع عـبـد الرحمن بن ملجم قتل الإمام علىّ.

وانتـهى الأمـر بقـيـام الخـلافـة الأمـويّة، أو المملكة الأمـوية، وأمـر مـعـاوية (الذى رَفَعَ المصاحف على أسنة الرماح، والذى رفع شعار: لا حكم إلا لله) أمر معاوية بلعن الإمام عليّ على جميع منابر المسلمين. . ومعاوية رجل تقىّ، بل كان أحد كُتّاب الوحى.

☆☆☆☆☆

« فى الحديث »

تقوم الجماعات الإسلامية بدور لا يُنكر فى الدعوة إلى « مظاهر التقوى » من اطلاق للحى، وتقصير للجلباب، ومن عكوف فى المساجد، واعتكاف فيها فى رمضان..

كذلك، ترفع هذه الجماعات شعار « الإسلام هو الحل » وبما أنهم يروْن « أنهم الممثلون الشرعيون للإسلام » إذن كأنهم يرفعون شعار « نحنُ هو الحل » ونحن أولى بالحكم ممّن قد اغتصبوا الحكم سنوات وسنوات.. والتجارب تثبت أن هؤلاء لمّا وصلوا إلى الحكم فى السودان وإيران وغيرهما لم يكونوا أقلّ سوءاً من الذين اتهموهم باغتصاب الحكم.

وفى عصور التقوى تصبح النّساء أسيرات، ويصبح الحكّام جلادين.. ولا أدرى حين التحيكم وإبداء الآراء فى نتائج الدكتوراه، أتكونُ شهادة « الأستاذة الدكتورة » كشهادة « الأستاذ الدكتور »؟

يزعم بعض من يرفعون « شعار الإسلام هو الحل »، وبعض من يملأون شاشات التلفزيون، أن المرأة أقلُّ ذكاء من الرجل، وأنّ الأولى بها أن تعود إلى البيت وإلى الحمل والإنجاب.. ونردّ على هؤلاء بالآتى:

١- اختبارات الذكاء موجودة فى كل مكان، وتطبيقها على الجميع (رجالا ونساء) لا يثبت فروقا بين الرجال والنساء.

٢- إذا أخذنا معيار جائزة نوبل، كما زعم أحدهم، فإن طبيعة المجتمعات الإنسانية هو الذى قلّل عدد الحاصلات على جائزة نوبل.. ومع هذا، فإذا احتكمنا لجائزة نوبل، فسوف نكتشف أن لا عالِم قد حصل عليها

مرتين، والعالم الوحيد الذى حصل على جائزة نوبل مرتين هو السيّدة مدام كورى، مرّة منفردة، ومرَّة مشتركة فيها مع زوجها.

٣- يزعم هذا الذى يرفع «شعار التقوى» أن الحاكمات من النساء قليلات، ويرد عليه بأن الإنسان قد مرّ عليه حين من الدهر وهو محكوم بالنساء، فيما يُعرف فى التاريخ الإنسانى بالمجتمعات الأمومية؛ كذلك فمن البديهى أنه طالما أن معظم المجتمعات تجعل للنساء وضعا أقلّ من الرجال، فإنّ هذا يحجّم دور النساء. (فى أمريكا والمجتمعات الغربيّة يقل أجر المرأة عن أجر الرجل).

٤- كذلك قُتِل السهروردى فى عصر صلاح الدين.. وحاولوا قتل ابن رشد فى عصر ملوك الطوائف فى الأندلس.

٥- ومن عجبٍ أنّ ناقداً جامعيا، ممن يُفترض أنهم مسئولون عن العقل والفكر، ينتقد أدب القلق والحرية عند العقاد، ولا يقبل الخروج «عن الموروث» حين جعل العقّاد الخَطْبَ أو المصيبة مع الصبر فى حبْلٍ أو قَرَنٍ واحد:

لَسْتُ على الصبرِ مثنيا أبداً ... ما صَحِبَ الصبرَ غيرُ ذى شَجَنِ
أكان للمَرْءِ أيُّمَا أربٍ ... فى الصبر لوْلا كوارثُ الزَّمَنِ
لا يجحدُ الصبْرَ هانئٌ جَزِلٌ ... هل يجحدُ الطبَّ وادع البَدَنِ
الخطب يعرو، والصبرُ يَعْقُبُهُ ... يا بِئْسَ من صاحبينِ فى قَرَنِ

٦- كذلك اعترض بعض النقاد على قصيدة «حُلم البعث» لعبد الرحمن شكرى «لعبثها بالتراث» مع أن قصيدة شكرى هذه من النماذج الشعرية النادرة التى تُرجمت إلى لغات أجنبية وقُورِنَتْ بالكوميديا

الإلهية لدانتى؛ ويقول فيها عبد الرحمن شكرى:

رأيْتُ فى النّوم أنّى رهنُ مظْلمـةٍ ... من المقـابر مـيَـتًـا حـولَه رِمَمُ
ناءٍ عن الناسِ لا صوتَ فيزْعجُنِى ... ولا ضـمـيـرَ ولا يأسٌ ولا نَدمُ
مـرّتْ علىّ قـرون لسْتُ أحْـفَظُهَـا ... عـدّا كـأنْ مَـرَّ بى الآباد والقِـدَمُ
حـتّى بُعِـثتُ على نفخِ الملا ... ئك فى أبواقِهم وتنادَتْ تلكم الرِمَمُ
فـقـام حـولى من الأمـواتِ شـرذمـةٌ ... هَوْجاءُ كـالسيل لجٌّ جـمـعُهُ عَـرِمُ
فـذاك يبـحثُ عنْ عينٍ له فُـقِـدَتْ ... وتلك تعـوزُها الأصـداغُ واللَّـمَمُ
وذاك يـمـشى على رِجْلٍ بلا قـدم ... وذاك غـضـبـانُ لا سـاقٌ ولا قـدمُ
مـرّت مـلائكةُ باللحم تعـرضُـه ... ليلبسَ اللحمَ من أضـلاعنا الوَمُ
رَقَـدْتُ مستشعراً نَوماً لأوَهمَهُمْ ... أنىّ إلى البـعثِ بى نومٌ وبى صَـمَمُ
فـأعـجلونى وقـالوا: قُمْ فـلا كـسلٌ ... يُنجْى من البـعث إنّ اللهَ مُـحْـتكِمُ
أستـغـفِـرُ اللهَ من لغـوٍ ومن عـبثٍ ... ومن جنايةِ مـا يأتى به الكَلِمُ

☆☆☆☆☆